



أتاك الربيع الطلق يختال ثائراً: الشعب يريد ويريد، وما أكثر ما يريد الشعب بعد أن أفاق من غفلته التي طالت، خصوصاً بعد أن اكتشف أن لديه ما يخيف به جحافل الظلم والشبيحة والبلطجية: لسان يتحرك، وكلمات حق بسيطة تغلب الجيوش، وتهز العروش.

تعددت المطالب في ميادين التحرير وساحات الاستقلال والتغيير، ولكن جوهرها - مع تنوعها - واحد، وتدور حول محور واحد وإن اختلفت مسمياتها، فما هو؟ أهـ العـدـلـ، أـمـ الـحـرـيـةـ، أـمـ الـمـساـوـةـ، أـمـ رـفـعـ الـظـلـمـ، أـمـ فـضـحـ الـفـسـادـ وـدـرـئـهـ وـمـعـاـقـيـةـ رـمـوزـهـ كـائـنـاـ منـ كـانـوـاـ، أـمـ إـنـشـاءـ دـوـلـةـ الـمـؤـسـسـاتـ وـالـقـانـوـنـ؟ـ

دعوني أزيدكم شوقاً بتأخير الإجابة قليلاً، ولنستمع إلى قصة واقعية فيها الكثير من الدروس وال عبر، تدور هذه القصة حول موقف لمفكر إسلامي مشهور، أظنه مالك بن نبي - رحمة الله - رحمة واسعة، أو لعله عالم آخر، ولقد فاجأ هذا العالم برأيه المعارض ومنظوره المخالف عدداً كبيراً من المحاضرين والحضور في مؤتمر ضخم.

يا لجرأته حين يخالف - جهاراً نهاراً - ما أجمعـتـ عـلـيـهـ مـؤـتـمـرـاتـ وـأـبـحـاثـ وـنـقـاشـاتـ بـأـنـ قـضـيـةـ اـحـتـلـالـ الـمـسـجـدـ الـأـقـصـىـ وـفـلـسـطـيـنـ هـيـ أـهـمـ وـأـخـطـرـ قـضـيـةـ تـوـاجـهـ إـلـسـلـامـ وـأـهـلـهـ،ـ لـاـ تـقـلـقـواـ،ـ فـقـدـ تـصـدـىـ لـهـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـفـكـرـينـ لـيـنـاقـشـوـهـ،ـ وـيـحـاجـوـهـ،ـ وـيـفـحـمـوـهـ.

ثم زادت المفاجأة واشتدت الدهشة في ذلك الجمع حينما سـأـلـهـ بـعـضـ مـنـ تـصـدـواـ لـهـ سـؤـالـاـ يـجـمـعـ بـيـنـ الـأـدـبـ وـالـكـيـاسـةـ،ـ وـلـعـلـهـ اـنـطـلـقـ مـنـ أـسـلـوبـ:ـ مـنـ فـمـكـ أـدـيـنـكـ،ـ سـأـلـهـ:ـ إـنـ لـمـ تـكـنـ قـضـيـةـ الـأـقـصـىـ الـمـبـارـكـ بـتـارـيـخـهـ وـبـشـهـادـهـ وـدـمـائـهـ وـآلـمـهـ قـضـيـةـ إـلـسـلـامـ الـأـوـلـىـ،ـ فـهـلـاـ أـخـبـرـتـنـاـ مـاـ هـيـ قـضـيـتـنـاـ الـأـوـلـىـ؟ـ

أجاب مالك بن نبي بهدوء وثقة عجيبة: قضية الإسلام والمسلمين الأولى هي: الجهل!

ليس لدى تفاصيل هذه الواقعـةـ،ـ وأـعـتـرـفـ أـنـيـ عـرـضـتـهـ هـنـاـ وـأـخـرـجـتـهـ إـخـرـاجـاـ مـسـرـحـاـ لـلـتـشـوـيـقـ وـالـإـثـارـةـ،ـ لـكـنـ جـوـهـرـ الـقـصـةـ وـاحـدـ،ـ وـلـعـلـيـ أـتـخـيلـ الـأـثـرـ الـبـلـيـغـ الـذـيـ أـحـدـثـهـ جـوـابـ مـالـكـ بـنـ نـبـيـ،ـ وـلـعـلـ تـكـبـيرـاتـ الـقـوـمـ مـنـ إـعـجـابـ وـالـقـبـولـ وـالـدـهـشـةـ أـيـقـظـتـ بـعـضـ الـنـيـامـ وـهـمـ يـتـسـاءـلـونـ:ـ هـلـ أـتـىـ الـعـيـدـ قـبـلـ حـيـنـهـ بـأـشـهـرـ؟ـ

صدق والله مالك بن نبي، فإن قضية العالم الإسلامي الأولى والكبرى هي: الجهل، وهي العقبة الكفود في تحقيق معنى

الاستخلاف، وإيقاظ الشعوب من سباتها، وبناء المجتمع المسلم، ودعوة الخلق بدليل الفعل والمثال الحي والثمرة الطيبة. حين تكون الأمة جاهلة ومجهلة وغارقة في جهلها فلا غرابة أن يحتل الأقصى وتطول غربته، ولا عجب أن تؤخر أمة الشهادة إلى ذيل القافلة، ولا عجب أن تستباح حرمات الأمة، وتضييع حقوقها، وتسرق مقدراتها.

ألا ما أسهل استعباد أمة جاهلة، فضعفها كامن في جهلها، ويزداد ضعف الجاهل، ويطول أمد رقه وذله حين ينكر الجاهل جهله، ويختيل إليه فيظنه حقاً، ويصر على دربه.

لقد أدرك الطواويت والفراعنة على مر التاريخ أن ضمان جهل الأمة أيسر طريق لاستعبادها، وكلما أتى معلم أو مصلح يذكر الناس بجهلهم، ذعر النظام المنتفع بدوام الجهل، وصاحت نيوله وأبواقه وأقلامه المأجورة: شعبنا العزيز، إننا نخاف أن يبدل هذا الخارج المارق دينكم، وأن يظهر في الأرض الفساد.

إن قضية أمة الإسلام الكبرى هي الجهل، وللأسف فلقد أفاد من جهل الأمة وتجهيلها المقصود والممنهج الكثير والكثير من خارج الأمة ومن بني جلدتنا، وما زالوا يواصلوا سعيهم المشئوم في تجهيل الأمة لاستعبادها، ودوام تسلطهم عليها، وتجهيلها الممنهج وتخديرها، لكي لا يستيقظ العملاق النائم.

ما وصل حال أمتنا إلى ما وصل إليه إلا حين جهلت كينونتها، وعميت عن هويتها، فأصبحت لا تقرأ ماضيها، ولا تثمن اصطفاءها وخيريتها، ولا تقدر شرف سندها المتصل بالسماء، وتنسى تاريخها وأمجادها وانتصاراتها، ولا تعرف معنى القراءة، وتعتمى عن أسرار القوة والعزيمة والكرامة الكامنة في عروقها، وتشعر بالهزيمة الروحية، فتحاقد ما بيدها من جواهر الحق الأصيل، وتتطلع إلى ما في أيدي الآخرين من فكر مشوه، وزبالة أفكار، ولعب أطفال، ووهم شيطان، وزيف وتحريف. أترى جاهلاً يدافع عن حقوقه المسلوبة وهو لا يعرفها؟

أم هل ترى شعباً مستعبداً ينهض للتخلص من قيود الذل وهو مقيد بقيود الجهل معتقداً بضعفه وجاهلاً بإسرار قوته؟
وهل ترى ضعيفاً مستذلاً ينتقض من أسره وهو انه وهو يجهل حقه الإلهي في الحرية والعزيمة والكرامة؟

إن الريبع العربي لن يؤتي أكله، ولن تينع ثمرته إلا إذا نفضت الشعوب المسلمة غبار الجهل عنها، وتعلمت حقيقة ومعاني ما تطلب، وسألت أنفسها ما هي الحرية والعدالة والمساواة؟ وما هو الفساد ومن هو المفسد؟ وما هو الإصلاح الذي ترجوه وما مسلكه؟ إن لهذه المصطلحات معانٌ عدّة، فأي معنى نريد، وما هي المرجعية في الفهم والفكر والسلوك؟ فإن رضينا لبشر مثلكما أن يعرف لنا هذه المطالب وفق هواه رضينا بعصر جهل وتجهيل جديد، وإن رددنا الأمر لله وللرسول -صلى الله عليه وسلم- نلنا أعلى مراتب العلم والعزيمة والحرية.

أتمنى أن تصل نصيحتي المتواضعة -وأنا الطاعم الآمن الكاسي- إلى تلك الجموع المجاهدة المباركة المعتصمة في ميادين الاستقلال وساحات التغيير؛ أن لا تنسى في خضم الشعارات المختلفة أن عدو الأمة المسلمة الأول هو الجهل والتجهيل، ألا فارفعوا يا أبطالنا شعارنا الأهم ومطلبنا الأوحد: الشعب يريد... إسقاط التجهيل، الشعب يريد دولة القرآن، الشعب يعرف ما يريد.

المصادر: